تمظهُرات الحُجج في خطاب المناظرة العجيبة للباقلاني

THE APPEARANCE OF ARGUMENTS IN THE DISCOURSE OF THE WONDER DEBATE BY BAQILLANI

بلعالم فضيلة [1]*

[1] المركز الجامعي آفلو (الجزائر)، belalem.fadhila@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024-03-24 تاريخ القبول: 2024-04-29 تاريخ النشر:2024-06-10

مُلخّص البحث

حظي تراثنا العربي بنفائس من الخطاب الفني المفيد، سخّره أصحابه لخدمة الدعوة، والذود عن حمى الأمة الاسلامية. ها هو الشيخ الباقلاني يشُدُ الرحال ويتصدى الصعاب لتأدية واجب الإمامة، وطاعة الولاية وقضاء المهمة التي كُلِّف بها، محاورة النصارى وإقناعهم بدين الحق. تتضمن هذه الورقة البحثيّة ملابسات المناظرة العجيبة، وتحلل القضايا التي طرحتها بمنظار حجاجي وآليات لغوية تداوليّة، يتعلّق الأمر بأمور: الدين والشرف والأخلاق، والنبوّة، والديانة المسيحية، مريم العذراء، السيّدة عائشة

كلمات مفتاحية: مُناظرة، حِجَاج، تداوليّة، دعوة، نصارى

Abstract:

Our arabic heritage has had valuables from useful artistic discourse, Its makers harnessed it to serve da'wah, and to defend the proteced Islamic Ummah, There he is, Sheikh Al-baqillani traveling and dealing with diffuclties to perform the duty of imamate, obey the authority, achieve the mission that he was assigned, debate with christians and convince them of the religion of the truth. This research paper include the circumstances of the wonder debate, analyzes the cases that it raised with argumentative perspective and pragmatic language mechanisms, it comes to matters of: Religion and honor and ethics, Prophecy, Christianity, The virgin Mary, Ms.Aisha

Keywords Debate, Controversy , Pragmatics, da'wah, Christians

* المؤلف المرسل: بلعالم فضيلة.

1. مقدمة:

يتلخص مفهوم الكفاءة التواصلية في استحضار قدرة الإنسان الفكرية والذهنية، ليكون قادرا على استقبال الجمل ومن ثم البحث في معناها كي يتم فهمها بسهولة، وبذلك تتم العملية التواصلية بين المرسل والمستقبل. نص المناظرة الذي بين أيدينا، مبني على قصد "براغماتي" نفعي، أما طرفي المناظرة فلهما وزنهما على مستويات عدة: الأول: عالم مسلم، بعثه الملك لكسب مودة ملك النصارى، وتبليغ رسالة الإسلام، وإظهار قوة المسلمين في العلم و الأخلاق؛ والفطنة. الثاني: ملك النصارى، يمثل قناعات وحضارة أمة أقر وجودها الإسلام يحافظ على صولجانه، وتقاليد الملك التي توارثها عن أجداده، يعرف وزن خصمه من خلال هذه الورقة البحثية نروم عرض مجريات هذه الزيارة للإمام الباقلاني منذ نزوله قصر الملك (طقوس الاستقبال ونصب المكيدة، إلى تشييعه بعد انقضاء مدة الزيارة سالما غانما) ونعالج أثناء هذه الدراسة مجموعة إشكاليات: كيف عامله الملك؟ كيف تمت محاولة ترويضه ليصب في إناء الضلالة؟ وبالمقابل كيف تفطن الإمام لهذه الحيل لإيقاعه في شراك الغفلة والاستغلال؟ كيف نافح عن مبادئ الدين الإسلامي باعتباره ممثل أقوى سلطة في الدولة الإسلامية –آنذاك –

ومنه سوف نحاور نصا مليئا بالإثارة والحجج اللغوية وغير اللغوية، كما أننا سوف نتعرف على عبقرية الإنسان عندما يُعمل فكره، ويناضل لأجل هدف يحققه، للحفاظ على مبادئه وقيمه، فما بالك إن كانت هذه القيم خاصة بأمة برمتها وتحفظ ماء وجه حضارة عريقة (الحضارة الإسلامية العربية) مقابل (حضارة عريقة هي حضارة النصارى)..

يندرج موضوع هذا البحث ضمن الدرس الحجاجي، لنص تتمحور جل فعاليات الحجاج والجدل والإقناع، يرى بيكون " أن المنطق لم يعد أداة لتقرير الحقيقة، لكنه أصبح يسدي العون إلى اكتشافات علمية جديدة"[1]

كما يرى بيكون:" أن الجانب الأساسي من المنطق يتناول منهج البحث العلمي الذي يقدم للباحثين وسائل اكتشاف حقائق جديدة[2].

2- الحجاج الأطر والمحددات:

يعرف بيرلمان في " مصنف في الحجاج" انطلاقا من موضوعه الذي هو "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم". وإلى جانب هذا التحديد نجده يقسم وظائف الحجاج إلى: أولا: الإقناع الفكري الخالص؛ ثانيا: الإعداد لقبول أطروحة ما؛ ثالثا: الدفع إلى الفعل[3].

إن النظرة الجديدة عند المناطقة تقوم على تطوير الآليات المنطقية للحجاج، وقد أشار جونسون في مؤلفه العقلانية الواضحة والنظرية التداولية للحجاج إلى أن التحاجج هو نوع من الخطاب أو النص الذي يكون كعصارة تطبيقية للعملية الحجاجية، يقوم فيها المدعي العارض بالتدليل على وجهة نظره بإقناع الطرف الآخر المعترض بصحة الأدلة التي يقوم بإنتاجها، هذه النظرة المسماة بالعصارة تمثل الحجة المحور الناتجة عن العصارة التدليلية لأحد الأطراف المشاركة في الحوار، وهي الفكرة التي نجد لها سندا في التصور التوملي (نسبة إلى تولمين) كما يذهب بيكر إلى أنّ أي حجاج بدون تحديد لمراتب التداولية لا يمكن أن يكون حجاجا. إن تعريف الحجاج بحسب جونسون على أنه عصارة تطبيقية لعصارة التحاجج هو بالضرورة تحقيق لعملية إنتاج، وهو يعني أهمية العودة إلى الإطار المنطقي لنموذج الحجاج[4]

إن المناظرة معاقلة، كان يسعى علماء المسلمين حثيثا في تأطير المعاقلة بالضمانات الخلقية والسلوكية باعتبار ذلك يندرج –ضمن هذا المنظور للفعل العقلي– في إطار الشروط التي لا يقوم هذا الفعل إلا بها، ولا تنضبط أركانه إلا باستيفائها، وهذا ما يفسر –ولو جزئيا– تلك العناية البالغة لعلماء المسلمين بضرورة وصل العلم بالعمل والنظر بالأخلاق[5]؛ وقد فصّل الإمام أبو حامد الغزالي في الآداب والشروط الأخلاقية الضرورية اللازم توافرها قبل وأثناء الخوض في المناظرة، وخصوصا ما يتصل بالأحوال القلبية والعملية للمناظرة في ذاته، وذلك حرصا منه على ألاّ يكون هذا السلوك التناظري مدخلا لفساد البناء التربوي للفرد[6]

3- الكشف عن بنية المحاجة:

أ- **استجلاء القضايا وتصنيفها:** قامت هذه المناظرة على مجموعة من القضايا يمكن تصنيفها كالآتي:

القضية الأولى: استطلاع المنجمين –الطالع خروجا– (عقيدة).

القضية الثانية: رسوم الدخول على ملك النصارى كسائر الرسل من الجند (الهيئة).

القضية الثالثة: مصيدة الدخول سيركع الإمام أمام الملك (بروتوكول).

القضية الرابعة: مكيدة مجالس اللهو، وآلة الأرغانون (أخلاقيات).

القضية الخامسة: الدعوة إلى مائدة الطعام (خصوصيات).

القضية السادسة: معجزة الرسول صل الله عليه وسلم (المعجزات).

القضية السابعة: المسيح عليه السلام ابن الله؟ (معتقدات).

القضية الثامنة: حادثة الإفك –أمنا عائشة– (سلوكيات).

القضية التاسعة: اتحاد الناسوت باللاهوت، منطق (اعتقاد).

القضية العاشرة: تنزيه البطرك من الصاحبة والولد (مقدسات).:

بعد القراءة الفاحصة للمناظرة العجيبة للإمام الباقلاني نطرح السؤال التالي: هل يحتوي هذا النص على محاجّة؟ وإن حصّلنا الجواب ببلى: فما هي الفكرة التي يريد أن يُقنع بها نظيره؟

ثم ننتقل إلى تقسيم هذا النص معياريا لفرز المقدمات الحجاجية من المحاجة الفرعية إلى المحاجة الخطية...

نقول بدءا إذا كان للقطعة الحجاجية مقدمة ونتيجة فإن لهذه المناظرة عدة مقدّمات. تم شرحها كل على حدى، وسنذكر مثالا على هذا على النحو التالي:

القضيّة الأولى: وقعت في بلاط الملك البُويهي في بلاد المسلمين، وذلك عندما كلّف الإمام الباقلاني بالقيام برحلة إلى بلاد النصارى، في مهمة سياسية لربح الوقت، ومهمّة دينيّة لنشر الدين الإسلامي(الدعوة)، وتصليح ما يمكن تصليحه من عقائد النصارى– المنحرفة– حيث اعترض طريقه وزير عضد الدولة الملك البويهي، مستشيراً مجموعة من علماء البلاد، علماء التنجيم على رأسهم– ابن الصوفي– وأهل المنطق والكلام على رأسهم– أبو سليمان المنطقي– وكان ردّ الإمام حاسماً، وموقفه ثابتاً، وعزمه على الرحيل لأداء المهمّة بثقة

الموقع	في بلاط الملك البويهي
النص المعياري	الطالع خروجا أي نسأل المنجمين إن كانت هذه

	الرحلة ميمونة أم مشؤومة(حجة المغالطة)
النتيجة	لا أقول بهذا لأن السعد والنحس والخير والشر بيد الله عزّ وجل

الموقع	مصيدة الدخول على ملك الروم
النص المعياري	تحويل مجلس الملك وراء الباب كي يدخل الإمام راكعا، بسبب ضيق المنفذ(حجة المعاندة)
النتيجة	تفطن الإمام للأمر ودخل بمؤخرته بحيث يدخل منحنيا ثم يدور واقفا

الموقع	مكيدة الآلة الموسيقية الأرغُن
النص المعياري	دعاه الملك إلى جلسة الشاي والطرب تحت أنغام الآلة الموسيقية الأرغُل (الأرغن) ليستفز عقله بها(حجة المكاشفة)
النتيجة	خيفة أن يظهر عنه شيء من خفة العقل أو النقص جرح رجله وانشغل بالألم عن الطرب وحافظ على وقاره فعجب الملك من ذلك إلى أن اكتشف ما شغله عن الطرب، فتحقق الملك من علو عزيمته و وفور همته.

الموقع	مكان الضيافة
النص المعياري	الدعوة إلى الطعام والإلحاح بتأكيد عدم وجود ما يخشاه الإمام من محرمات
النتيجة	الاعتذار لعدم الدخول خشية وجود المحرمات على مائدة الملك مثل لحوم الخنازير...

الموقع	على مائدة الطعام
النص المعياري	قبول الدعوة بعد تأكيد الملك من خلو المائدة من المحرمات.
النتيجة	الإيهام بالأكل وعدم أكل شيء منه اتّقاء للوقوع في خطأ

الموقع	الجلسة الأولى بعد الطعام
النص المعياري	سؤال الملك عن انشقاق القمر(من المعجزات) كيف رآه الحاضرون ولم يره جميع الناس لماذا خصصتم برؤيته وهو في السماء غير مختص بكم
النتيجة	ردّ الإمام لعدم استعدادهم لرؤيته، لعدم علمهم. رد الإمام فهذه المائدة بينكم وبينها نسبة لم يرها المجوس والبراهمة وأهل الإلحاد، وخاصة يونان جيرانكم وكلهم لها منكرون فلماذا رأيتموها دون غيركم؟

الموقع	المجلس الثاني.
النص المعياري	استدعاء القسيس وقال إن صاحبه قال: ما في مملكتي مثله، ولا للمسلمين في عصره مثله وعجز الملك واعترافه نحن لا نطيقه لأن صاحبه قال ما في مملكتي (أي لا نقدر على مجاورته). عجز القسيس والتسليم برأي الإمام. تحير الملك وقال سبحان الله(حجة المباغتة)
النتيجة	وصف القاضي للرجل القسيس كالذئب أشقر الشعر مسبله. وأعيدت عليه قصة انشقاق القمر في عهد رسول الله صل الله عليه وسلم، وقصة المائدة المذكورة في سورة المائدة التي طلبها الحواريون.

الموقع	المجلس الثالث

النص المعياري	القاضي يطرح قضية القسيس "ألست تزعم أن الأرض كروية" "أتنكر أن يُرى في هذا الإقليم مالا يُرى في إقليم آخر كالكسوف يُرى في موضع دون موضع، ينقله الجم الغفير، حتى يصلنا العلم به ولو كان كذلك لوقع عندنا العلم الضروري به فلما لم يقع لنا العلم الضروري به. دلّ على أن الخبر مفتعل باطل." قال القاضي: يلزمه في نزول المائدة ما لزمني في انشقاق القمر، ويقال له: لو كان نزول المائدة صحيحا لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهودي ولا نصراني ولا ثنوي إلا وهو يعلم بالضرورة، ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة دلّ على أن الخبر كذب(حجة المعارضة)
النتيجة	قال نعم فالتفت الملك وقال هات الجواب. فبُهت النصراني والملك ومن ضمه المجلس.

الموقع	المجلس الرابع
النص المعياري	الملك: ما تقولون في المسيح عيسى بن مريم –عليه السلام– فقال يا مسلم: تقولون المسيح عبد ولا تقولون إنه بن الله. قال: يا مسلم العبد يخلق ويحيي ويميت، ويبرئ الأكمه والأبرص. قلت: لا يقدر على ذلك، كله من فعل الله. قال: وكيف يكون المسيح عبدا وخلقا من خلقه وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كله؟ قلت معاذ الله! ما أحيا المسيح الموتى، ولا أبرأ الأكمه والأبرص. وقلّ صبره وقال يا مسلم: تنكر هذا مع انتشاره في الخلق، وأخذِ الناسِ له بالقبول؟ قلت: ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة أن الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم، والمعرفة أن الأنبياء لا يفعلون المعجزات من ذاتهم وإنما

	هو شيء يفعله الله تعالى على أيديهم تصديقا لهم، تجري مجرى الشهادة. قال الملك: إن ذلك في كتابكم، وقد حضر جماعة من المشهورين فيكم. قلت: أيها الملك، في كتابنا أن ذلك كله كان بإذن الله تعالى، وتلوت عليه من نصوص القرآن في المسيح: "المائدة (110)، آل عمران (49)" وقلت: إنما فعل المسيح ذلك كله بإذن الله وحده لا شريك له، لا من ذات المسيح، ولو كان المسيح يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص من ذاته وقوته لجاز أن يقال: إن موسى فلق البحر، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته، وليست معجزات الأنبياء –عليهم السلام– من أفعالهم دون إرادة الخالق، فلما لم يجُز هذا لم يجُز أن تُسند المعجزات التي ظهرت على يد المسيح عليه السلام. ثم قال الملك: سائر الأنبياء كلهم.. يتضرعون للمسيح حتى يفعل ما يطلبون. قلت: أفي لسان اليهود عظم لا يقدرون أن يقولوا: إن المسيح كان يتضرع لموسى وكل صاحب نبي يقول: إن المسيح كان يتضرع إلى نبيّه، فلا فرق في الموضعين في الدعوى (حجة المساندة).
النتيجة	قال الإمام: روح الله وكلمته وعبده ورسوله، كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، واحتج بالنص القرآني "إن مثل عيسى عند الله كمثل ءادم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" آل عمران: 59. (فقلت) نعم، كذا نقول، وبه ندين قلت "معاذ الله ماتخذ الله من ولد وما كان معه من إله" المؤمنون: 91. إنكم لتقولون قولا عظيما، فإذ جعلتم المسيح بن الله، فمن كان أبوه وأخوه وجدّه وعمّه وخاله؟ وعددت عليه الأقارب فتحيّر.

الموقع	حادثة الإفك
النص المعياري	سأل أحد أساقفتهم القاضي فقال: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رُميت به من الإفك؟(حجة المعاندة)
النتيجة	قال الإمام مجيبا على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوء: مريم وعائشة، فبرّأهما الله عزّ وجل. وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج. يعني أن عائشة أولى بالبراءة من مريم، وكلاهما بريئة مما قيل فيها، فإن تطرّق في الذهن الفاسد احتمال ريبة في هذا، فهو إلى تلك أسرع، وهما –بحمد الله– منزهتان في السماء بوحي الله عزّ وجل عليهما السلام

هذه الحجج المتساندة، المتعاندة في آن معا أعجب ما رأيت من أنواع الحجج، جمع القاضي السيدتين –في البراءة وفي التهمة– ثم جاء بالمعاندة: أن الأولى لها زوج وليس لها ابن، والثانية لها ابن وليس لها زوج. فكان بالأولى يعبر عن عقيدة المسلم وأخلاقه، وبالحجة والمعاندة: ردا على الذهنيات الفاسدة التي يتطرق إليها احتمال ريبة

الموقع	اتحاد الناسوت باللاهوت
النص المعياري	قلت للملك: لم اتحد الناسوت باللاهوت؟ قال الملك: أراد أن ينجي الناس من الهلاك.
النتيجة	قلت: وهل درى بأنه يُقتل ويُصلب ويُفعل به ذلك؟ فإن قلت إنه لم يدر ما أراد اليهود به، بطُل أن يكون ابنا. وإن قلت إنه درى، ودخل في هذا الأمر على بصيرة فليس بحكيم؛ لأن الحكمة تمنع من التعرض للبلاء. فبهت الملك وتحيّر، وكان آخر مجلس لي معه.

الموقع	أحد محافل النصرانية
النص المعياري	سؤال القاضي: كيف الأهل والولد وتحرّج الجمع

النتيجة	تبرئون الإنسان من اتخاذ الصاحبة والولد، ولا تستعظمونه لربكم – عزّ وجهه– سوءة لهذا الرأي

4- **استجلاء البناء الاستدلالي وتصنيفه:**

لاحظنا أن القاضي يطرح القضايا التي تمسُّ العقيدة بهدف إصلاح عقيدة النصارى، وإيقاظهم من الظلال الذي أوقعهم في الكنيسة، وادعائهم أن عيسى بن الله، وأنه قد اتخذ اللاهوت أي الذات الإلهية بالناسوت، أي الذات البشرية (من الإنس) بحيث يضع مُحاوره (الملك) في خيارين أمرين بقوله (درى أم لم يدر)، ثم ساند قوله بحجتين متعاندتين متساندتين في آن واحد كعادته، وتوّلى الإجابة: إن قلت أنه لم يدر ما أراد اليهود به بطُل أن يكون ابنا.

وإن قلت أنه يدري فليس بحكيم لأن الحكمة تمنع من التعرض للبلاء.

ما سبق أن أوردناه من خطاب دار بين القاضي الباقلاني وملك النصارى وخاصته الأسقف وهو من أخيار النصارى فوق القسيس ودون المطران، انتشر فيه الحجاج بصورة مكثّفة، وتجلى من خلال فطنة القاضي إذا تعلق الأمر بما يطرحه خصومه من قضايا استفزازية، أخلاقية تتعلق بشخص الرسول صل الله عليه وسلم، مثل قضية انشقاق القمر وقد أفحمهم بالردِّ المنطقي القاطع، واستعمل أسلوب الهجوم باستعمال الحجج المعاندة ومقابلة ما يطرحونه بما يناظره عندهم فمقابل انشقاق القمر، طرح قضية المائدة التي نزلت على ضيف سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وقضية (حادثة الإفك) التي طرحها الأسقف تهربا من قضايا العقيدة التي أفحمهم بها، ظنا منه أنه يحرّك فيه عصبية تُعميه لأن العربي يأبى على المحرمات، ويغار على شرفه أن يداس له طرف، فاستفزه بذكر حادثة الإفك...

غير أن الإمام تفطن لكل حيلهم من البداية، وأوجز في الرد وغنِم منه، وتفوّق عليهم، وذلك بفضل ما طرحه من حجج متعاندة وأخرى متساندة، ومن روابط وعوامل حجاجية زيّنت خطابه، وجعلته ينتصر على خصمه، وجعلته يُبهت ويسكت.

وردّ عليه: هما امرأتان، الأولى متّهمة (متزوجة ولم تنجب)، والثانية (غير متزوجة وأنجبت طفلا) أيهما أولى بالاتهام؟ والأولى والثانية متهمتان، وبريئتان؛ ومنزهتان من السماء. كما طرق

الأمر من وجهة ثانية باعتبار المتلقي حيث انقسم إلى نوعين متلق منصف، مؤمن، غير ظالم، ومتلق يحمل عقلية فاسدة يأخذ بالأسباب الدنيوية يرد عليه بما يتناسب ومداركه الدنيئة. فينبهر، ويسكت، ويذعن ويسلم.

طرح القسيس: القضية الأولى= عن قضية الإفك.

رد القاضي: القضية الأولى+ القضية الثانية= هما امرأتان، القضية الأولى(متزوجة ولم تنجب).

القضية الثانية(غير متزوجة وأنجبت طفلا) أيهما أولى بالاتهام؟

القضية الأولى تساند القضية الثانية (في الاتهام وفي البراءة).

القضية الثانية تعاند القضية الأولى (بالمقارنة بين الحالتين)، لكنه تعاند مهمل.

لأن النتيجة واحدة = البراءة من السماء.

نلاحظ أن الطرح تهكمي يضمر خبثا استفزازيا إنها قضية الشرف، والطعن في شرف زوجة النبي صل الله عليه وسلم (أم المؤمنين عائشة)، كما يبين لؤم صاحبه (القسيس) واستعماله الأساليب الملتوية في الحوار هروبا من القضايا المنطقية التي تمس العقيدة التي حرّفوها وحتى لا تنكشف ألاعيبهم بدهاء وفطنة القاضي الباقلاني.

أما رد الإمام كما بيناه أعلاه فكان منطقيا مقنعا، لا يحمل ضغينة، طرح القضية الأولى وقارنها بالقضية الثانية = والنتيجة أن القضية الأولى أقوى من القضية الثانية. لكنه أهمل هذه النتيجة، ورجّح منطق السماء فجعلهما متساويتين في البراءة لأن الله برأهما.

استجلاء المنهجية الاستدلالية وتصنيفها:

"منبع الحجاج الجدلي، هو التساؤل والخلاف والحيرة حول قضية أو جملة قضايا، ويعد السؤال والسائل في هذا المجال أهم من المجيب، لأنه انطلاقا منهما تتحدد معالم الإشكالية المطروحة."[7]

أما في هذه المناظرة التي نحن بصدد دراستها، وتحليلها نجد المنهجية التي بنيت بها قائمة على الحوارية، وذلك بطرح المسائل من الطرفين المتحاورين، فمن يبادر في الأول، يصبح طرفا مستمعا عندما يتكلم المستمع الأول.

غير أن الجديد في هذه المناظرة أن الأصوات المتحاورة متعددة مقابل صوت واحد ثابت نعددها بالشكل الآتي:

– وزير الملك البويهي، ابن الصوفي، الصيرفي، المنطقي (أبو سليمان) هؤلاء مقابل القاضي الباقلاني قبل خروجه.

– أبو القاسم المطهر بن محمد بن عبد الله: وزير عضد الدولة.

– أبو الحسين عبد الرحمان بن عمر بن سهل الصوفي الرازي، عالم بالفلك، من أهل الري، منجم، عضد الدولة عالم بالفلك.

– أبو سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجتاني، عالم بالمنطق، له تصانيف منها: صوان الحكمة وشرح كتاب أرسطو، ورسالة في مراتب قوى الإنسان.

– ملك النصارى (باسيل أو قسطين).

– القسيس: رئيس من رؤساء النصارى في الدين.

– البطرك: مرتبة من مراتب رجال الدين بعد البابا.

ويليه المطران، ثم الأسقف، ثم القسيس ثم الشماس.ذكر هذا الترتيب ابن كثير في تفسيره (308/6).

يميز أرسطو بين جنسين حجاجيين هما: "المحاورة الجدلية Discussions Dialectique" و "الخطبة Discours Oratoire". ولكل من هذين النوعين نمط حجاجي خاص: الأول حجاج جدلي، والثاني خطابي...

والجدلي أوثق صلة بالأمور الفكرية العقلية السلوكية، أما الثاني فمجاله توجيه الفعل والتوجيه إليه وخلق الاعتقاد[8].

ومنه نستطيع تصنيف نص المناظرة (محل الدراسة) بالمجال الأول ألا وهو الحجاج الجدلي.

"منبع الحجاج الجدلي، هو التساؤل والخلاف والحيرة حول قضية أو جملة قضايا. ويعد السؤال والسائل في هذا المجال أهم من المجيب. لأنه انطلاقا منهما تتحدد معالم الإشكالية المطروحة."

وهذا النوع من الخلاف والحيرة لاحظناه عند مناظري القاضي الباقلاني منذ بداية المناظرة، إذ قال ابن الصوفي: ليست المناظرة وشأني، ولا أنا قائم بها، وإنما أحفظ من علوم النجوم، وأقول: إذا كان من النجوم كذا كان كذا. أما تعليله فهو من علم أهل المنطق، وأهل الكلام، والذي يتولى المناظرة على ذلك: أبو سليمان المنطقي[9].

وقال المنطقي: المناظرة دُربة وتجربة، وأنا لا أعرف مناظرات هؤلاء القوم، وهم لا يعرفون مواضعاتنا وعباراتنا، ولا تُحتمل المناظرة بين قوم هذا حالهم؛ ولما حضر البطرك –قيِّم ديانتهم– وقد أوعز إليه الملك بالتحفظ من هذا الداهية، وقال له: تحفّظ منه، وأحضر ذهنك، فلعلّك تتعلق منه بسقطة، أو تعثر على زلة تقضي بفضلنا عليه.

وفي الختام قال الملك للبطرك: ما ترى في أمر هذا الشيطان؟ قال البطرك: تقضي حاجته، وتلاطف صاحبه وتبعث بالهدايا إليه، وتُخرج هذا العراقي عن بلدك من يومك –إن قدرت– وإلا لم آمن الفتنة به على النصرانية[10].

الحجة المغالطية: هي ما يشبه الحق وهي باطل، وهي الحكمة المموهة التي تجعل السامع يغترّ بها لأول وهلة تطرق سمعه، وهذه الحجة يعتمد صاحبها على مقدّمات كاذبة وفيها تمويه وخداع، مثلما حصل مع القاضي الباقلاني بشأن "انشقاق القمر".

قال الملك: هذا الذي تدّعونه في معجزات نبيكم من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟ ثم قال: وكيف لم يره جميع الناس؟[11]

وفي مجلس آخر قال: ما تقولون في المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؟ ثم قال: يا مسلم، المسيح عبد؟

ثم قال: ولا تقولون إنه ابن الله.

ثم قال: يا مسلم العبد يخلق، ويحيي؛ ويميت، ويبرئ الأكمه والأبرص؟ وقال: بعد أن تحيّر (الملك)، وقلّ صبره.

يا مسلم، تنكر هذا مع اشتهاره في الخلق، وأخذ الناس له بالقبول؟

وأخيرا قال الملك: قد حضر عندنا جماعة من أولاد نبيكم، والمشهورين فيكم، وقالوا: إن ذلك في كتابكم.

كل هذه المقدمات كاذبة مبنية على المراوغة والخداع، رغم إجابات القاضي الباقلاني المنضبطة بمحددات المنطق والواقع هو الشرع حيث أعطاه الأدلة المنطقية، والأدلة الشرعية من القرآن الكريم، غير أن صاحب هذه المقدمات أصرّ على التعمية، وعدم الإذعان إلى أن أفحمه القاضي، بما سبق ذكره من هذا البحث ص: 06.

5- البنى اللغوية للمناظرة:

أ- مظاهر التساند والتعاند الحجاجيين:

تتسم الفاعلية الحجاجية بالنسبية ومطبوعة على التعددية مع ما يقتضيه ذلك من حوارية تتقلب بين المساندة والمعاندة أو ما يسمى أقطاب الحجاجيات اللسانية بالتوجه الحجاجي أي أن الحجّة تكتسي بالنسبة إلى النتيجة قيمة معينة، إذ أنها تساندها أو تعاندها بمقادير متفاوتة[12]. مثلا نجد في رد القاضي الباقلاني عن استفسار الملك عن سبب رفضه للامتثال للرّذوخ لأوامره، ولما مضى عليه رسمه مع الرسل بحجج متساندة، وأخرى متعاندة لإثبات النتيجة ذاتها وهي الحفاظ على عزّ الإسلام باحترام أهله. فقال: "أنا رجل من علماء المسلمين، (الحُجة الأولى) ما تحبونه منّا ذلّ وصغار، والله تعالى قد رفعنا بالإسلام وأعزّنا بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام، كل هذه العبارات مساندة للحجة الأولى مقوية لها في تعددها وتقلباتها من إثبات العزة للإسلام والمسلمين إلى توجيه الكلام إلى الملك، والتعريض له بما دأب عليه الملوك من إكبار للرسل ورفع لأقدارهم، ثم الانتقال إلى حيثية التقابل بقوله: ولا يقصدوا إذلالهم، لاسيما إذا كان الرسول من أهل العلم ووضع قدره وانهدام جاهه عند الله وعند المسلمين. والحجة الثالثة: تساند ما أسلف ذكره بالإثبات والنفي، بأسلوب الشرط: "وإن فعلت ما يقولون عيّرني المسلمون، وطعنوا في ديني، وسقطتُ من أعينهم."

ج- سياق المحاجة:

جاءت هذه المناظرة في سياق المنافحة عن مبادئ وقضايا سياسية، ودينية: أما السياسية فتمثلت في المفاوضة على إطلاق أسرى المسلمين، والفوز بثقة النصارى، وتقديرهم لما فرضه المحاجج (القاضي الباقلاني) من هيبة وصولجان للإسلام والمسلمين، وتجنب الحرب التي يكاد يشتعل فتيلها بسبب ذلك القائد المستنصر بالمسلمين.

والسياق الديني: تمثل في تصحيح كثير من معتقدات وانحرافات النصارى في تصوراتهم لنبيهم من حيث العبودية والألوهية، وخلطهم بين المعجزات والخوارق.

د- **المصطلحات المحورية:**

خاصة بالقاضي الباقلاني: العزة، الصولجان، الحمد لله، الحمدلة، الأنبياء، المعجزة الجلال إن دلّت على شيء إنما تدل على أدبه ووقاره، ومعرفته بقدر نفسه.

خاصة بمناظريه: لقد امتازت لغتهم بالغرور، والشتم، والسلبية مثل: نعته بالشيطان، الثالوث، اللاهوت والناسوت، اتهام في الشرف وذكر عرض المرأة (زوجة النبي)، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على تحريفهم لرسالة السماء وإصرارهم على ضلالهم وأنانيتهم.

6- . خاتمة:

من النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الورقة البحثية :

التمكن من الثقافة الإسلامية، وتفعيل الآليات اللغوية، والتمكن من ناصية اللغة جعلت الإمام الباقلاني يمثل دور الإمام المسلم الداعي إلى دين الحق ينجح في مهمته؛ التفوق في الاستدلال والمحاجة.

يعتبر الإمام الباقلاني من الرواد الأوّل للفكر الإسلامي الذين أسسوا القواعد الأساسية لقوانين الخطاب واستراتيجيات الفكر الأمر الذي نفتقده لمحاورة أنفسنا ولمحاورة الآخر، رغم توفر وسائل الاتصال بقينا مكتوفي الأيدي أمام التطور التكنولوجي، عوض الاستفادة منه في دفع عجلة الحضارة العربية الإسلامية المعطلة منذ زمن الباقلاني الذي نافح لإقرار كلمة الحق في وجه الخصم بتفوق وعلى استحقاق

وفي ختام هذه الورقة نستخلص مجموعة من العبر نوجزها لأبنائنا طلبة العلم، والمسلمين منهم على وجه الخصوص: أن العلم النافع رفعة لصاحبه، وأن الغفلة تضيّع ما بناه سلفنا من عزّة وكرامة لهذه الأمة التي بلغت أوجها، زمن تمسّكها بدينها وأخلاقها، وأنفتها، إلى أن هبّت ريح العولمة، والعصرنة، فما انفكت الأجيال تجري وراء التقليد ناسية أن لها أصلا تليدا؛ وهاجرت الأوطان إلى أحلام السراب. نسأل الله أن يعيننا على التمسّك بالعروة الوثقى، لإيصال رسالة السماء للبشرية جمعا .

7- قائمة المراجع:

- الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، محمد سالم الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2008م، بيروت- لبنان.

- المناظرة جمعها ونسقها: محمد عبد العزيز الخضيري، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة- بحث في بلاغة النقد المعاصر-، محمد سالم الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008.
- الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، رشيد الراضي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010
- الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم حافظ إسماعيلي علوي، ج2، عالم الكتب الحديث إربد، الأردن، 2010
- مصادر الترجمة: سير أعلام النبلاء، وتاريخ الخلفاء، والبداية والنهاية، والأعلام، والكامل لابن كثير.
- الموسوعة الفلسفية، الفلسفة وفلسفة التاريخ والمنطق والجدل، فيصل العباس، مركز الشرق الأوسط الثقافي، ج12، ط1، 2012

8- الهوامش:

[1] الموسوعة الفلسفية، الفلسفة وفلسفة التاريخ والمنطق والجدل، فيصل العباس، مركز الشرق الأوسط الثقافي، ج12، ط1، 2012، ص 07

[2] المرجع نفسه، ص 07

[3] الحجاج في البلاغة المعاصرة- بحث في بلاغة النقد المعاصر-، محمد سالم الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص 107

[4] ينظر مقال: التواصل والحجاج في التداوليات الحجاجية للحوار (التفكير النقدي) "نموذج المدرسة الهولندية"، إيمرين وغروتن دو رست، عليوي أبا سيدي، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم حافظ إسماعيلي علوي، ج2، عالم الكتب الحديث إربد، الأردن، 2010، ص: 272

[5] ينظر الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، رشيد الراضي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010، ص: 88/87

[6] المناظرة جمعها ونسقها: محمد عبد العزيز الخضيري، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م

[7] ينظر: من مصادر الترجمة: سير أعلام النبلاء(ج: 16/ص: 249)، وتاريخ الخلفاء(ص: 406-408)، والبداية والنهاية(ج: 11/ص: 300)، والأعلام(ج: 10/ص: 156)، والكامل لابن كثير(ج: 08-09/ص: 22).

[8] الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، محمد سالم الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2008م، بيروت- لبنان، ص: 52

[9] نفسه، ص: 52

[10] المناظرة، مرجع سبق ذكره، ص: 24

[11] نفسه، ص: 25

[12] نفسه، ص: 36-41